مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 169 - 183 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تلقي التفكيكية عند عبد الملك مرتاض

Receiving Deconstruction at Abdelmalek Mortad

* ط.د/ نصيرة مسعودي[1] / أ.د/ يوسف لطرش[2]

Nacera Messaoudi[1] / Prof. Youssef Latrash[2]

جامعة العربي التبسي– تبسة . الجزائر[1]

Larbi tebessi university -Tebissa. Algeria[1]

جامعة عباس لغرور. خنشلة. الجزائر [2]

Abbas Lagour University- Khenchela. Algeria[2]

nacera.messaoudi@univ-tebessa.dz[1] / lettlang@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول: 2022/04/05	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

يحيل واقع الاتجاه التفكيكي في الساحة النقدية العربية، والذي ميزه السعي للاهتمام ومحاكاة المفهوم الغربي على حساب الممارسة الإجرائية، إلى محاورة نتاج ناقد عربي ومحاولة استقراء قراءته للاتجاه التفكيكي مصطلحا وإجراء، إذ وقع الاختيار على نتاج الناقد الجزائري د/ "عبد الملك مرتاض" لتقصي ملامح وإشكاليات الاتجاه التفكيكي من خلال أعماله النقدية. وفق قراءة نقدية مقترنة بالمقارنة خاصة بين المفاهيم والمصطلحات،عند الناقد عبد الملك مرتاض والمفكر جاك دريدا.

الكلمات المفتاح : نقد، تلقي، تفكيكية، كتابة، اختلاف.

Abstract :

The deconstructive orientation's fact in the field of Arabic criticism that is characterized with the pursuit of attention and simulation of the western concept at the expense of the procedural practices, leads to engaging a conversation with an Arab critic's product, and trying to read into his understanding of the deconstructive orientation, terminologically and procedurally, as the product of the Algerian critic Abd El-Malek Mortadh has been chosen, in order to investigate the features and problematic of the deconstructive orientation through his critiques, according to a critical reading associated with the analogy, especially between concepts and terminologies by the critic Abd El-Malek Mortadh and the thinker Jack Drida.

* نصيرة مسعودي: nacera.messaoudi@univ-tebessa.dz

Keywords: (Criticism, reception, deconstruction, writing, difference)

مقدمة

عرفت الساحة النقدية العربية استقبالا واسعا للمناهج النقدية الألسنية المختلفة، والتي كان لها الصدى الواسع لدى النقاد العرب، المتتبعين للحركة النقدية، ولعل أهم هذه المناهج البنيوية والتفكيكية وهي أكثر الاتجاهات النقدية إسالة لحبر الناقد العربي، وعلى الرغم من الرواج الكبير الذي عرفته البنيوية إلا أن الرهان سرعان مانقلب على هذا المنهج، لتتجه الانظار الاتجاه التفكيكي، الذي عد من اكثر التوجهات النقدية إثارة للجدل، لما يتضمنه من ثورة ضد كل سابق ومعاصر له.

لاقت التفكيكية _ على الرغم من التأخر في الظهور _ الاهتمام من طرف الناقد العربي، وروج لفكر الاختلاف بمختلف الوسائل. بدءا بحركة الترجمة، مرورا بمحاولة التعريف بالاتجاه التفكيكي، وصولا إلى مقاربة النص الأدبي وتطبيق آليات استراتيجية التفكيك. وبين رافض ومؤيد عرفت التفكيكية سبيلا في كتابات النقاد العرب. وكغيرها من المناهج النقدية السابقة، فإن تلقي التفكيكية لم يسلم من اشكاليات ميزت التلقي العربي على مختلف المستويات. ومن أهم الأسماء النقدية العربية، التي حاولت تقديم قراءة لمفاهيم التفكيكة ومقاربة النص وفق آلياتها نجد الناقد الجزائري "**عبد الملك مرتاض**"، الذي حاول تقديم قراءة نقدية من خلال مجموعة من المؤلفات شكلت مساره النقدي، وهو مسار يغري الباحث لتتبعه وقراءته، وقد تم تسليط الضوء على قراءته للتفكيكية، فبماذا تميزت هذه القراءة؟ وماهي أهم الإشكالات التي تطرحها؟

يهدف هذا المقال إلى الوقوف عند نتاج الناقد" عبد الملك مرتاض" وقراءته للفكر التفكيكي والكشف عن مدى تمثله للمفاهيم والآليات التي رسمها "**جاك دريدا**"، وذلك من خلال تتبع مجموعة من العناصر الأساسية، بدءا برصد ترجمته لبعض المصطلحات، وطرحه للمفاهيم، ثم الانتقال إلى الجانب الإجرائي، ورصد أهم الاشكالات التي تطرحها كتاباته حول الاتجاه التفكيكي.

أولا/ واقع المصطلح التفكيكي عند مرتاض وإشكاليات الترجمة والمفهوم

يحيل الاطلاع المتعدد على نتاج الناقد على رصد أهم المفاهيم التي تناولها ترجمة وتعريفا، ومن الجلي أن الناقد قد اقتصر في مقاربته للمصطلح والمفهوم التفكيكي على البعض دون الكل، وسيتم اعتماد

مجموعة من المصطلحات الواردة في كتاباته النقدية ترجمة ومفهوما، وهي: التفكيكية (La Déconstruction) علم الكتابة(La grammatologie)، الاختلاف(La différance)

La Déconstruction –1

عند جاك دريدا	عند عبد الملك مرتاض
La Déconstruction	التشريح التفكيكية التقويض

ورد مصطلح "التشريح" عند "عبد الملك مرتاض"، في كتابه "بنية الخطاب الشعري. دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية." (١٩٨٦)، استهل هذا الكتاب بتمهيد حول نظرية الشعر عند الجاحظ ثم تطرق في فصله الثاني لدراسة الصورة الشعرية، وعالج في الفصل الثالث الحيز الأدبي، وفي الرابع الزمن أما الفصل الخامس فكان مخصصا لدراسة الإيقاع والصوت في قصيدة الشاعر اليمني "عبد العزيز المقالح" ليختم الكتاب بدراسة المعجم الفني للقصيدة. [1]

واستعمل "مرتاض" مفهوم التشريح في كتابه "النص الأدبي من أين وإلى إلى أين" متناولا في القسم الثاني منه "تشريح النص" "لأبي حيان التوحيدي"[2]، ولتوضيح هذا المفهوم، يورد تعليقا على هذا المصطلح في موضع آخر من كتابه "نظرية القراءة". قائلا: ".... وذلك على أساس أن مصطلح "تشريح النص" قد يكون أوفر حظا من العناية الدقيقة بكل جزئيات النص الأدبي، وإخضاعها إلى إجراء يضارع المجهر في الكشف عن الخفايا الجمالية الكامنة وراء السمات اللفظية للنص المطروح للمعالجة..." [3]

يوضح "عبد الملك مرتاض" المقصود من مفهوم التشريح، بإضافة تعليق آخر. قائلا: "استعملنا نحن في كتابنا" النص الأدبي من أين وإلى أين" مفهوم التشريح بمعنى التحليل المجهري للنص، بحيث نتابع سماته اللفظية واحدة بعد واحدة، وفي مستويات متباينة تتضافر لدى نهاية الأمر إلى تسليط الضياء عليه من كل زواياه الممكنة ... وهو الإجراء المستوياتي الذي استحدثناه واصطنعناه في تحليل قريب من عشرة نصوص أدبية قديمة وحديثة وشعرية ونثرية....، غير أن الدكتور "عبد الله الغذامي" يبدو أنه يستعمل معنى التشريح بمعنى يقترب من معنى التقويض، بمصطلحنا والتفكيك بمصطلح غيرنا من النقاد العرب الحداثيين".[4] ما يرمي إليه الناقد من كلامه هذا، هو التفريق بين مفهوم التشريح الذي طرحه في كتابه "النص الأدبي من أين وإلى أين" لمعالجة نص "أبي حيان التوحيدي" والتشريح الذي يستعمله الدكتور "عبد

الله الغذامي"، فالتشريح عند "عبد الملك مرتاض" ومن خلال كلامه، هو عبارة عن تحليل مجهري للنص أما مفهوم التشريح عند "الغذامي" فهو بمعنى التفكيكية حسب ما أشار إليه الناقد، والتقويض بمفهومه الخاص؛ إذن هناك فرق بين ما أراده "مرتاض" من تشريحه للنص، وما يريده "عبد الله الغذامي". وليتضح الفرق لا بد من فهم معنى "التشريح" عند "الغذامي".

جمع "عبد الملك مرتاض" بين السيميائية والتفكيكية في كتابه تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، وما يهم في هذا الموضع هو مصطلح "التفكيكية" فما الذي أراده الناقد من هذا لمفهوم؟ وهل يقصد به مفهوم التفكيكية عند "دريدا"؟

يوضح الناقد "عبد المالك مرتاض" مفهوم التفكيكية في مقارباته، من خلال الحديث عنه في مدخل كتاب "تحليل الخطاب السردي". يقول: "أم كان علينا أن نعمد إلى نص "زقاق المدق" لنجيب محفوظ لندارسه انطلاقا منه، بما هو نص سردي. نفككه إلى عناصره الأولى التي تركب منها...؟ وإن مثل هذا التفكيك للمادة النصية أضحى أمرا ذا شأن خطير بالقياس إلى كل دراسة تشرئب إلى الكشف عن طوايا النص وتحديد البنى التي أعد فيها والمواد التي بني منها. ولعل الذي ينقص تحليلاتنا، هذه التفكيكات التي تتيح الكشف عن مكامن النص وخباياه، وهو كشف حين يقع سيفضي إلى وضع منهج للدراسة ملائم لطبيعة المواد المفككة نفسها، لا لطبيعة منهج مستجلب، جاهز، مفروض من الخارج على النص فرضا غريبا على بناه العميقة والسطحية معا..." [5]. يبدو أن الناقد قد أعطى مفهوما آخر لمصطلح التفكيكية، المستعان بها في كتبه الثلاث، والمراد من قوله هذا هو تحليل النص إلى البنى الأولية التي أعد منها، لإتاحة الكشف عن مكامنه وخباياه، وهذا ما يساعد على اختيار ووضع المنهج المناسب، انطلاقا من المواد المفككة نفسها. وعليه فمفهوم التفكيكية عن "مرتاض" لا يتجاوز حد التحليل، ولا يفضي إلى ما أراده "دريدا" من مفهوم (Déconstruction)

انقلب "عبد الملك مرتاض" على التشريحية والتفكيكية، مستعملا مصطلحا آخر وهو "التقويض" أو "التقويضية"، [6]. ولتوضيح أسباب اللجوء إلى هذا المصطلح واستعماله يقول "عبد الملك مرتاض": "شاع المصطلح بين النقاد العرب المعاصرين تحت إطلاق التفكيكية ونحن نقترح أن يستعمل مصطلح "التقويضية" لأن أصل المعنى في فلسفة دريدا تقويض يعقبه بناء على أنقاضه، على حين أن معنى التفكيك في اللغة العربية، يقتضي عزل قطع جهاز، أو بناء عن بعضها بعضا دون إيذائها أو إصابتها بالعطب كتفكيك قطع محرك، أو أجزاء بندقية، وهلم جرا... والخيمة في العربية تطنب إذا بنيت و

(تقوض) إذا سقطت أعمدتها وطويت... وقد جاء هذان المعنيان متلازمين في بيت لأبي الطيب المتنبي". إذن التقويض عند "مرتاض" هو هدم يعقبه بناء، ويرد في لسان العرب حول دلالة هذا المصطلح "قوض البناء: نقضه من غير هدم".[7] ومنه استخلص مفهوم التقويض كمقابل للمفهوم الدريدي، ولم يبق هذا المصطلح حكرا على الناقد "عبد المالك مرتاض" في الساحة النقدية العربية، إذ استعمله العديد من النقاد من بينهم "ميجان الرويلي" و "سعد البازغي" في كتاب "دليل الناقد الأدبي".

يقدم سعد البازغي تفسيرا للترجمة التي قدمها "الغذامي" وللمفهوم على حد سواء "هذا التقديم لمصطلح غربي مهم يكشف عن مشكلتين: الأولى تتمثل في الهدف الأخلاقي أو الأيديولوجي وراء استعمال المصطلح كتقنية قرائية، والثانية في فهم المصطلح ومهاده الفلسفي"،[8] وهاتين المشكلتين. حسب رأي البازغي. نتج عنهما إخراج للمصطلح عن دلالته الحقيقية، والذي يفيد ترك النص مفككا بعد إبراز تناقضاته الداخلية دون اللجوء إلى إعادة بنائه. وهذا جوهر الاختلاف بين مفهوم دريدا والمفهوم الذي قدمه الغذامي"

سيتم وبعد مناقشة المقابل العربي الذي قدمه كل من "عبد المالك مرتاض" و "عبد الله الغذامي" لمفهوم (Déconstruction)، موازنة المفاهيم التي قدمها كل من الناقدين لمقاربة المفهوم عند "دريدا". وتجدر الإشارة إلى أن المصطلح الذي سيتم اعتماده عند الدكتور "مرتاض" هو مصطلح "التقويض" دون المصطلحين الآخرين.

Déconstruction بين التقويض والتشريح

لم يقدم "جاك دريدا" (Jacques Derrida)تعريفا محددا للتفكيكية يمكن الاستناد عليه، ولكن يمكن رسم بعض ملامح القراءة التفكيكية، وغايتها من النص بإيراد نص لـ "دريدا". يقول فيه: " أعتقد أنه من غير الممكن الانحباس داخل النص الأدبي... إننا لا نستطيع أن نبقى داخل النص، ولكن هذا لا يعني أنه علينا أن نمارس بسذاجة سوسيولوجية النص أو دراسة السيكولوجية أو السياسية او سيرة المؤلف. أعتقد أن هناك بين خارج النص وداخله توزيع آخر للمجال أو الخبر، وأعتقد أنه سواء في القراءة الباطنية أم في القراءة التفسيرية للنص من خلال مسيرة الكاتب أو تاريخ الحقبة، يظل هناك ضيء ما ناقص دائما..." .[9]

يحدد "دريدا" من خلال المقطع السابق الخطوة الأولى للقراءة التفكيكية والمتمثلة في الانتقال بين خارج النص وداخله، إذ تتسم هذه المرحلة بالمعاينة والقراءة وإعادة القراءة. أما المرحلة الثانية، فيوضحها

"دريدا" بقوله: "لا أتعامل والنص أي نص كمجموع متجانس ليس هناك من نص متجانس هناك في كل نص... قوى عمل هي في الوقت نفسه قوة تفكيك للنص، هناك دائما إمكانية لان نجد في النص المدروس ما يساعد على استنطاقه وجعله يفكك نفسه... ما يهمني في القراءات التي أحاول إقامتها ليس النقد من الخارج، وإنما الاستقرار أو التموضع في البنية غير المتجانسة للنص والعثور على تواترات أو تناقضات داخلية يقرا النص من خلالها نفسه، وتفكيك نفسه بنفسه، وهذا لا يعني أن يتبع حركة مرجعية، ذاتية، حركة نص لا يرجع إلا لنفسه، وإنما هناك في النص قوى متناثرة تأتي لتقويضه وتجزئته".[10] مهمة القارئ إذن. وحسب ما أشار إليه "دريدا" هي الكشف عن تناقضات النص بالبحث عن قوى التفكيك التي تجعل النص يفكك نفسه بنفسه، وتركه بعد إبراز تناقضاته الكامنة في ثناياه.

تتضح الفكرة السابقة بإيراد نص لبربرا جونس (Barbara Djonson) تبين فيه المقصود بالتفكيكية والغاية منها. تقول: "ليست التفكيكية Déconstruction مرادفا للتدمير Destruction. إنه في الحقيقة أقرب إلى المعنى الأصلي لكلمة (تحليل) نفسها التي تعود جذورها إلى معنى (الحل) "To undo". وهذه في حكم المرادفة ل "التفكيكية"، وإذا كانت القراءة التفكيكية تدمر شيئا فإنها لا تدمر المعنى، وإنما تدمر دعوى، أن هناك نمطا من أنماط الدلالة يهيمن على نمط آخر ". تنفي الناقدة على القراءة التفكيكية بصفة التدمير وتقربها من التحليل، والمراد من التفكيك ليس النص في حد ذاته لأنه مفكك من تلقاء نفسه، بل تفكيك دعوى تغليب دلالة معينة لسبب من الأسباب على غيرها من الدلالات التي يحتملها النص، أي إظهار اختلاف النص وتناقضه مع نفسه.

يتبين من خلال الطرح السابق أن التفكيكية التي قال بها "دريدا"، لا تهدف إطلاقا إلى عملية البناء بل هذا مذهب يناقض أهم مبدأ من مبادئ الاتجاه التفكيكي وهو عائد إلى البنيوية على نحو ما. فالهدف ليس العمل على بناء النص وإظهار تجانسه وتماسكه بل العكس هو الغاية؛ أي إظهار تناقضات< النص وأنه آيل إلى السقوط ومرحلة البناء هذه ترد عند الناقد "عبد المالك مرتاض"

يقول "مرتاض" في تعريفه للتقويض: "... ونحن نقترح أن يستعمل مصطلح "التقويضية" لأن أصل المعنى في فلسفة دريدا تقويض يعقبه بناء على أنقاضه، على حين أن معنى التفكيك في اللغة العربية يقتضي عزل قطع جهاز أو بناء عن بعضها بعض دون إيذائها، أو إصابتها بالعطب؛ كتفكيك قطع محرك أو أجزاء بندقية، وهلمجرا... والخيمة في العربية تطنب إذا بنيت، وتقوض إذا أسقطت أعمدتها وطويت..." [11] ويضيف في موضع آخر قائلا: "ولعل ذلك ما اشرأب إليه دريدا للتأسيسات التقويضية

التي تسعى إلى معالجة النص الأدبي، وتشظيته، وتبديد عناصره اللسانية، واللسانتية جميعا... قبل العمد إلى تركيب المتشظيات والمتبددات من عناصره لإقامة بناء أدبي يركح إلى الأصل دون أن يكونه، ويعمد إلى تأويل النص لا إلى استعماله، ويستند إلى التطلع للكشف عن معنى معناه (على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني) لا عن معناه فقط... فكما أن الفلسفة التقويضية الدريدوية تسعى إلى تقويض مركزية العقل... فإن معالج النص يمكن أن يعمد إلى تجزئته، وتشظيته، ولك بتفكيك ألفاظه، وتبديد أفكاره قبل الإقبال على معالجة كل هذه العناصر والأجزاء معالجة تجعل منه بنيانا جديدا ومع ذلك يظل مرتبطا بالبناء المقوض، ولكن دون أم يكونه بالفعل... فهو جديد؛ ولكن جدته لا تعني قيامه على عدم، وهو تأسيس، ولكن على موجود قد وقع تقويضه".[12]

يتضح أن عبد المالك مرتاض فهم تفكيكية "دريدا" على أنها هدم يعقبه بناء، وهذا البناء أو الناتج الجديد يظل بشكل من الأشكال مرتبطا بالبناء المقوض دون أن يكونه. وإن غاية التفكيكية هي الوصول إلى "معنى المعنى" في النص مشيرا إلى ما ذهب إليه "عبد القاهر الجرجاني" في هذا الصدد. لكن غاية التفكيكية كما توضح في أكثر من موضع ليس الامساك بمعنى المعنى أو هدم النص في حد ذاته وإعادة بنائه فالنص عند "دريدا" مفكك ومهمة الناقد هي الكشف فقط عن تفككه وسقوطه وتناقضه.

يظهر من خلال ما سبق، واقع المصطلح التفكيكي من حيث الترجمة والمفهوم عند الناقد عبد الملك مرتاض والذي اتسم بالتفاوت والاختلاف بينه وبية مقصد "دريدا" من المصطلح. وهذا الواقع ليس حكرا عليه فحسب، ويمكن ارجاع الاسباب إلى زئبقية الكلمة في حد ذاتها: "ذلك أننا إذا ما أردنا الوقوف بادئ ذي بدء على صعوبات الترجمة... فربما وجب ألا نبدأ بالاعتقاد – الأمر الذي سيكون مجرد سذاجة– بأن مفردة «التفكيك» تقابل في الفرنسية دلالة واضحة ولا مصدر فيها للبس. هناك في لغة(ي) من قبل، مشكلة ترجمة شائكة، بين ما نهدف إليه هنا وهناك عبر هذه الكلمة، واستخدام هذه الكلمة نفسه ومنبعها. لقد بات واضحا أن الاشياء تتغير من سياق إلى آخر في الفرنسية، نفسها بالذات. بل أكثر من هذا، إن الكلمة نفسها أصبحت مرتبطة، في الأوساط الألمانية والإنجليزية، وخصوصا الأمريكية، بدلالات مرافقة وإيحاءات وقيم عاطفية أو تأثرية جد مختلفة. سيكون تحليل هذه القيم كبير الفائدة ولربما استحق في محل آخر عملا كاملا." [13] فكيف بها إذا انتقلت إلى سياق تاريخي وحضاري مغاير، وإلى لغة مختلفة عن اللغة الأصلية التي ولدت فيها؟ إن من الواضح أن الامر سيصبح أكثر صعوبة وتعقيدا. وتتضاعف هذه الصعوبة عندما نعلم أن هذا المفهوم منزلق ومنفلت من قبضة أي

تحديد أو محاولة للتعريف حتى لدى منشئه فالتفكيكية لدى دريدا "ليس تحليلا analyse ولا نقدا critique... وليس منهجا ولا يمكن تحويله إلى منهج،[14] ليصل في الختام غلى نفي كل صفة تعريفية للتفكيكية، بقوله: "ما الذي لا يكون التفكيك؟ كل شيء !ما التفكيك؟ لا شيء".[15]

2- علم الكتابة: (Grammatologie)

عند جاك دريدا	عند عبد المالك مرتاض
Grammatologie	في علم النحو علم الكتابة

عرف مصطلح (Grammatology) مثل غيره من المصطلحات، إشكاليات عديدة من حيث الترجمة والمفهوم، ويعد هذا المفهوم من أهم المفاهيم التي أشاعها "جاك دريدا" لإرساء فكره القائم على تفكيك الفكر الغربي المتمركز حول اللوغوس (Logos)، ويبدو أن معظم النقاد العرب، قد ترجموا المصطلح. والذي يمثل في الأصل عنوان كتاب لدريدا. بـ "علم الكتابة"، على أساس أن "الغراما" (Gramme) في التراث الإغريقي تعني النقش أو الحفر أو الكتابة"، وأن مفردة "لوغيا أو لوغوس" تعني العلم، وبهذا يصبح ربط المفردتين ببعضهما" علم الكتابة.[16]

يقدم "عبد المالك مرتاض" ترجمتين كمقابل للمصطلح (Grammatologie) وهما: علم النحو، وعلم الكتابة، وفيما يلي نص يبين واقع هذا المصطلح عند "عبد المالك مرتاض".

- عبد الملك مرتاض: ولعل من أشهر من تناول النص بالتحليل بارط... وجاك دريدا خصوصا في عمليه: "في علم النحو، و "الكتابة والاختلاف".
- جابر عصفور: ... أرجوا منه أن يصحح بعض أخطاء الترجمة الموجودة في الورقة وهي كثيرة، والذي لفت عيني على وجه التحديد ترجمة كتاب دريدا... في علم النحو... هذه ترجمة خاطئة، كتابه بالفرنسية صحيح جراميتولوجية وبالانجليزية أنجراماتولوجي، لكن سواء كنا ننقل عن الفرنسية أو الانجليزية فترجمة اسم الكتاب بعلم النحو هي ترجمة خاطئة لأن ما يقصد إليه دريدا "بجراماتولوجي" هو الكتابة... فأرجو في المستقبل الاهتمام بهذه الترجمات وألا يقتصر الأمر على العنوان، لأن عنوان الكتاب خارج سياق الكتاب وبعيدا عن قراءة الكتاب نفسه عمليا يمكن أن يؤدي إلى ترجمات مضللة.

- عبد الملك مرتاض: بالنسبة للترجمة، فعلا أنا كنت على عجلة والكتاب في الحقيقة لا أملكه دي لاجراماتولوجي هذا الكتاب لا أملكه في مكتبتي... وأنا وقعت في الخطأ الذي ارتكبه الآخرون في الترجمة دون تمحيص.
- يكشف هذا المقطع عن مدى الارتباك في الترجمة للمصطلحات النقدية، وهذا ليس حكرا على الدكتور "عبد الملك مرتاض" فقط فإشكالية الترجمة، اصبحت الهاجس الذي يخيف كل متصفح للكتب النقدية العربية. لكن الناقد وكما وضح في المقطع الحواري السابق، تراجع عن ترجمته الأولى وقدم "علم الكتابة" كمقابل ثان لـ (Grammatologie) [17]

لم ينفرد د/ عبد الملك مرتاض بوضع النحو كمقابل لـ (Grammatologie) فهذا د/ عبد الله الغذامي، يقدم مصطلح "النحوية"، كمقابل للمصطلح السابق، إذ يقول في سياق حديثه عن جاك دريدا: "وانطلاقة دريدا كانت مع صدور كتابه (of Grammatology)؛ أي (في النحوية) في عام ١٩٦٧ بفرنسا..." [18]، ولم يتوقف الغذامي عند حد ترجمة هذا المفهوم بالنحوية، بل إن هذه الترجمة قادته إلى الجمع بينه وبين مفهوم النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" حيث يقول: "وفكرة (النحوية) تذكرنا بالإمام عبد القاهر الجرجاني ودعوته إلى (النظم) وهو تضافر بلاغيات الجملة مع نحوها لتأسيس جماليتها بعيدا عن قيد المدلولات". [19]

إن ترجمة هذا المفهوم بـ "النحوية" ترجمة تبدو بعيدة عن قصد "دريدا" من المفهوم، إذ لا علاقة لهذا المفهوم بالنحو، بل المقصود به هو "علم الكتابة"، التي كانت منحطة في التراث الفلسفي الغربي منذ سقراط إلى دي سوسير، والذي كان يعلي من شأن الكلمة المنطوقة، أما "دريدا"، فقد أعلن موت هذه الكلمة ليفتح المجال أمام الكتابة لتشمل اللغة، ولتمتد إلى جميع المجالات والحقول الأخرى فإذا كانت اللغة، يقول دريدا، "تطلق على كل من الفعل والحركة والفكر والتفكير والوعي واللاوعي والتجربة والعاطفة، الخ..." [20]، فإننا "نواجه اليوم نزوعا لإطلاق تسمية "كتابة" على هذه الأشياء جميعا وسواها: لا لتسمية الحركات الجسمانية التي تستدعيها الكتابة الحروفية او التصويرية أو الايديوغرافية فحسب، وإنما كذلك على كل ما يجعلها ممكنة، ومن ثم وفي ما وراء الجانب الدال، على الجانب المدلول عليه نفسه" [21]، وهكذا سيمكننا الحديث عن كتابة رياضية وكتابة سياسية وعسكرية...إلخ).

3/ الاختلاف (Différance)

عند جاك دريدا	عند عبد المالك مرتاض

Défférance	التأجيل/ الإرجاء

يعد مفهوم الاختلاف من أهم المفاهيم التي طرحها جاك دريدا لدعم مشروعه التفكيكي، وتتضح دلالة الاختلاف حسب رأي دريدا" من خلال سلسلة من المفردات التي تعمل معها "الكتابة" أو "الأثر" أو "الزيادة" أو "الملحق" وهي جميعها كلمات مزدوجة القيمة، أو ذات قيمة غير قابلة للتعيين... إنها إجمالا كلمات ليست مختلفة عنها أيضا، إنها سلسلة تتمتع كل حلقة منها باستقلالها النسبي، ولكن تتكرر فيها الحلقة المجاورة"[22]، ويضيف في موضع آخر "الاختلاف في حقيقته إحالة إلى الآخر وإرجاء لتحقيق الهوية في انغلاقها الذاتي لذا فإن الهوية تحيل إلى آخرها الذي يؤسسها نفسها كهوية..." [23]؛ أي أن الاختلاف يتضمن بالاضافة إلى معنى المغايرة، الإرجاء أيضا ويمكن توضيح القاعدتين الأساسيتين لعمل الاختلاف من خلال توضيح تركيب المفردة في حد ذاتها، فالاختلاف Défférance يشير إلى فعلين " ١- أن سختلف، أن لا يكون مشابها Difer، ٢- أن يرجئ ويؤجل Defer...".[24]

ثانيا/ واقع التفكيكة عند "عبد الملك مرتاض" على الصعيد الإجرائي واشكالياتها:

يستهل الناقد "عبد الملك مرتاض قراءته التفكيكة السيميائية المركبة لـ "رواية زقاق المدق" لـ "نجيب محفوظ" بتساؤل بحيرة الناقد، إذ يقول: "التحليل الروائي بأي منهج؟ وبعبارة أدق: هل يوجد منهج ثابت للتحليل الروائي؟... ثم أي منهج هذا الذي يستطيع استيعاب هذا العالم المعقد، المتشعب، والمتغير العجيب معا؟... وإنا إذ نطرح هذه الأسئلة الحيرى فإنما لكي نبدي شيئا مما يتأوبنا من هذا القلق المنهجي الذي يساورنا كلما جئنا إلى عمل سردي..." [25]فالتساؤل المطروح والمعبر عن الحيرة، ناتج كما يصرح الكاتب عن قصور المناهج النقدية على استيعاب النص الادبي، ونظرا لهذا القصور لجأ الناقد إلى التركيب بين منهجين مختلفين، التفكيكي والسيميائي " دون التسليم بأن التركيب بينهما سيكون هو المسعى النقدي النهائي"[26].

يوضح د/ عبد الملك مرتاض سبب اختياره للقراءة التفكيكية، والذي يراه أمرا ضروريا؛ لأن "مثل هذا التفكيك للمادة النصية أضحى أمرا ذا شأن خطير بالقياس إلى كل دراسة تشرئب إلى الكشف عن طوايا النص، وتحديد البنى التي أعد فيها، والمواد التي بني منها... ولعل الذي ينقص تحليلاتنا، هذه التفكيكات التي تتيح الكشف عن مكامن النص وخباياه..." [27]. يتضح من خلال هذا القول، أن الناقد يسعى للكشف عن خبايا النص، والوصول لأغواره والكشف عن دلالاته ومكامنه، وفق منهج مناسب توصلنا إليه التفكيكات التي أشار إليها الناقد.

يسعى الناقد لتحقيق غاية من وراء تفكيك النص، وهي الغاية التي لا يتردد الناقد في الافصاح عنها، وهي بالتأكيد غاية تتعارض والنقد التفكيكي. الذي قال به "جاك دريدا " **(jaques Derrida)**. والذي يسعى للكشف عن تناقض النص؛ إذن الغاية من تفكيكة مرتاض هي التحليل أي تحليل النص إلى أجزاء أو بنى أولية سعيا للوصول إلى تجانس النص. وتأتي مرحلة التفكيك وفق ما يقر به الناقد، في المرحلة الثالثة. يقول: "وقد جئنا إلى النص فقرأناه خمس مرات متتالية، فكانت القراءة الأولى للاستطلاع... وكانت القراءة الثانية لرصد البنى والأشكال السردية... وكانت الثالثة من أجل تفكيك مشكلات النص السردي على ضوء الرصد الذي كان تم في القراءة الثانية. أما القراءة الرابعة فقد خصصت لاستدراك ما يمكن أن تكون القراءات الثلاث السابقة. إما سهت عنه، أما لم تلحن إلى أهميته. أما القراءة الخامسة، والأخيرة، فقد كانت الغاية منها هي التحقق والتثبت من المادة المفككة والشواهد النصية المستخرجة والإحصاءات المستنتجة، والتأكد من سلامة السعي الذي اضطلعت به القراءات الأربع السوابق؛ من أجل صبها نهائيا، في مواطنها التي قدرت لها من الخطة المنهجية العامة لتحليل هذا النص".[28]

يقسم الناقد قراءته للرواية إلى قسمين قسم تناول فيه البنى السردية للرواية[29] وقسم خصصه للتقنيات السردية وفق المنهج السيميائي[30]، وتظهر التفكيكية كما يوضح الناقد في تجزئته إلى بناه المشكلة له؛ كالبنية المعتقداتية، والبنية الشبقية، والبنية الكدحية.

يقدم "عبد الملك مرتاض" في مدخل المعالجة. كما أطلق عليها. توضيحا للتجزيئات التي قدمتها القراءة التفكيكية والتي كانت نتيجة قراءة متتالية، وقبل أن تصل للصورة النهائية التي قدمها في نص طويل نوعا ما قائلا: "ولا نلفي أي حرج في إرضاء فضول القارئ بالكشف عن بعض هذه المواد التي تراكمت لدينا بفعل القراءات الخمس الأساسية لهذا العمل الروائي، وذلك مثل: البنية القهرية والبنية الطبقية والبنية الشهوانية أو الشبقية البنية الاعتقادية والفلكلورية، البنية الدينية، سيميولوجيا الألوان ودلالاتها، سيميولوجيا الروائح العطرة والمنتنة، سيميولوجيا الأصوات، سيميولوجيا النظر وملامح الوجه، سيميولوجيا الإشارات سيميولوجيا التناص.ثم تجمعت لنا مواد أخراه حول الشخصية وبنائها.... كما تجمعت لنا مواد كثيرة من حول الزمكان... كما تراكمت لدينا مواد أخريات من حول الحدث وتقنيات السرد..."[31] جميع المواد أو الجزئيات المشكلة للنص والتي تجمعت لدى الناقد بعد قراءته المتعددة للرواية، كانت نتيجة لمرحلة التفكيك، أو القراءة التفكيكية التي أنتهجها "عبد المالك مرتاض" في مقاربته لروايته "نجيب محفوظ" وهذه

المرحلة التي أشار إليها الناقد تحدث عنها "دريدا" في تقديم استراتيجيته في مقاربته للنص، وهي القراءة وإعادة القراءة والانتقال بين خارج النص وداخله، ولكن يبقى الهدف ليس ذاته فهدف "دريدا" تأكيد لا تجانس النص، وتفكيكه لذاته، بينما هدف "عبد المالك مرتاض" البحث عن تماسك وتجانس النص من خلال تجانس وتماسك بناه المشكلة له إذ يشير في موضع من الكتاب. قائلا: "... لاحظنا أنها مادة غزيرة، ومتنوعة، بل أحيانا متناقضة مع نفسها كسيرة الحياة كما نجد قيام البنية الشبقية، أو الجنسية بإزاء الدينية... فأعنتنا النفس في تذويبها في وحدات متجانسة أو مفترض تجانسها على الأقل..." [32]

عمل الناقد من خلال مرحلة التفكيك، على تحليل النص، التحليل الذي يتيح الكشف عن مكامن النص وأشراره، مما يتيح للناقد اختيار المنهج الملائم للمادة المفككة.

يظهر مصطلح التشريح عند "عبد الملك مرتاض" في عدة دراسات، منها ما قدمه في كتابه "النص الأدبي من أين وإلى أين"، بتشريحه للنص لـ "أبي حيان التوحيدي". فبعد حديثه عن شعرية النص وفنيته، ينتقل إلى ما يهدف إليه من خلال دراسته. قائلا: "وفي هذا الفصل محاولة نتحدث فيها عن بنية هذا النص؛ أي أننا نبحث عن مفتاح السر البنيوي للنص، قبل أن نتعرف على هذا السر الآخر المتمثل في الإيقاع الصوتي المهيمن عليه، فبدون التعمق في بنية الجملة المستخدمة في هذا النص الأدبي، لا يجوز أن نزعم لأنفسنا أننا ألممنا بهذا النص وحللناه، بله درسناه، بله شرحناه؛ لأن مثل هذا التشريح منتهى غايته معرفة كنه السر الغامض قبل البدء في القيام بمثل هذه العملية الشاقة أو بعدها، فإن لم ننته إلى هذا السر الأسلوبي (نسبة إلى الأسلوبية) ولم نهتد إليه السبيل من خلال تشريحنا النص، نكون كمن خبط في ديجور." [33] فالناقد يسعى من قراءته للنص السابق الذكر الكشف عن سره البنيوي والاهتداء إلى معرفة نظام الكلام وهذا ما يتنافى ومقاصد التفكيكية، ويقصد من التشريح تحليل النص وتجزئته إلى مكوناته الاساسية الجزئية للوصول إلى سر شعريته وفنيته ويظهر ذلك من خلال قوله أيضا: "... وبدراسة الأفعال وتشريحها..." [34]؛ أي تحليلها لتحديد بنيتها.

يتوضح من الدراسة السابقة أن الناقد، يقدم التفكيكية والتشريح على الصعيد التطبيقي، كمرحلة سابقة لتطبيق المنهج الملائم لمادة النص، سواء السيميائي أو البنيوي، والغرض من مرحلة التحليل تلك تجزيء النص إلى مواد أولية قصد الوصول إلى أغواره. وبحسب ما قدمه الناقد. فإن مرحلة التفكيك أو التشريح مرحلة باتت ضرورية لتحقيق غاية مقاربة النص، وهو الكشف عن تجانسه ونظامه وهذا يتعارض ومساعي تفكيكية"جاك دريدا". ربما هذا راجع إلى قناعة الناقد بأن أحادية المنهج وانغلاقه على النص

ليس السبيل الصحيح لمقارعة النص لذا نجده، يميل في مقاربته النقدية إلى التركيب المنهجي المفتوح والمنتشر عوض القراءة المغلقة المتقوقعة ذات المنهج الواحد، ويبدو الباحث على وعي كبير بهذا المنهج التركيبي الذي تصدر عنه قراءاته. إيمانا منه أن "التعددية المنهجية أصبحت تشيع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية ويرى أنه لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التخمة التي مني بها النقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب خصوصا في هذا القرن". [35]

تحيل القراءة المتعددة لكتب الناقد " عبد الملك مرتاض "، إل رصد بعض خصائص لغته النقدية إذ يشتغل الناقد عل توظيف اللغة الأدبية الجميلة، وفي هذا يقول: "لكن لا سواء معرفتك لفظ قابع في المعجم واستعمالك ذلك اللفظ الذي كان قابعا في المعجم، فتحوله إل عروس مجلوة، وإل شهد عسل مستثار، وإل وردة تعبق بالشذى، وإل كائن يطفح بالحياة والعنفوان"[36]، فهو يميل في لغته النقدية إل استعمل الصور البيانية والمحسنات البديعية فيحولها من لغة نقدية إلى لغة أدبية جمالية، شبيهة بلغة جاك دريد

خاتمة

تميز مسار الناقد "عبد المالك مرتاض" في قراءاته للتفكيكية، بإشكاليات عدة ويظهر ذلك من خلال نتاجه النقدي، الذي تمثله مجموعة من الكتب والمقالات المنشورة في المجلات والدوريات العربية. حيث تسير التفكيكية جنبا إلى جنب في كتابات "مرتاض" مع السيميائية (La Sémiotique).

– ففي العديد من مؤلفاته يلجأ الناقد إلى المزجبين بين المنهجين، وهذا ما نلحظه من خلال عناوين كتبه الثلاث، وهي: "ألف ليلة وليلة. دراسة سيميائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد." ، وكتاب "أ–ي. دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة." ، وكتاب "تحليل الخطاب السردي. معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق". وهذا عائد بحسب رأي الكاتب إلى قصور استراتيجية التفكيك لسبر أغوار النص.

– من حيث المصطلح فقد بدا واضحا تأرج الناقد بين المفاهيم والمقابل العربي للأجنبي. وهذاسببه غموض المصطلحات والمفاهيم التي طرحها الناقد جاك دريدا. كما أنها مفاهيم أنتجها فكر ومزاج يختلف كثيرا عن الفكر، والمزاج العربي.

هوامش:

[1]- ينظر: عبد الملك مرتاض. بنية الخطاب الشعري. دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية.(1991)، ط2. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الفهرس.

[2]- ينظر: عبد الملك مرتاض. النص الأدبي من أين وإلى أين.(1983)، دط. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ص: 60.

[3]- عبد الملك مرتاض. نظرية القراءة أ تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية. (2003)، دط. دار الغرب، وهران الجزائرص: 60.

[4]- المرجع نفسه. ص: 61.

[5]- عبد الملك مرتاض. تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق.(1983)، دط. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: ٩٠.

[6]- ينظر: عبد الملك مرتاض. في نظرية النقد.(2005)، دط. دار هومة، الجزائر. ص: 89.

[7]- عبد الملك مرتاض. نظرية القراءة. ص: 206.

[8]- البازغي سعد. استقبال الآخر. الغرب في النقد العربي.(2004)، ط1. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ص: 226.

[9]- جاك دريدا. الكتابة والاختلاف. تر: كاظم جهاد. (1988)، ط1، دار توبقال، المغرب. ص: 51.

[10]- المرجع نفسه. ص: 49.

[11]- عبد الملك مرتاض. نظرية القراءة. ص:206.

[12]- عبد الملك مرتاض. في نظرية النقد. ص: 89.

[13]- جاك دريدا. الكتابة والاختلاف. ص: 57.

[14]- المرجع نفسه. ص ص: 61-60.

[15]- المرجع نفسه. ص: 63.

[16]-ينظر: ميجان الرويلي، سعد البازغي. دليل الناقد الأدبي.(2006)، ط3. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ص: 247.

[17]- ينظر: عبد الملك مرتاض. في نظرية النقد. ص: 91.

[18]- الغذامي عبد الله. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية،قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر.(2006)، ط6. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. ص: 52.

[19]- المرجع نفسه. ص: 53.

[20]- جاك دريدا. الكتابة والاختلاف. ص: 106.

[21]- المرجع نفسه. ص: 107.

[22]– جاك دريدا. الكتابة والاختلاف. ص: 53.

[23]– المرجع نفسه. ص: 31.

[24]– س. رافيندران. البنيوية والتفكيك.تر خالدة حامد.(2002)، ط1. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد. ص: 151.

[25]– عبد الملك مرتاض. تحليل الخطاب السردي. معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق. ص: 3.

[26]– المرجع نفسه. ص: 6.

[27]– المرجع نفسه. ص: 9.

[28]– المرجع نفسه. ص ص: 22-23.

[29]– ينظر المرجع نفسه. ص:31.

[30]– ينظر المرجع نفسه. ص: 123

[31]– المرجع نفسه. ص: 120

[32]–المرجع نفسه. ص: 23.

[33]– عبد الملك مرتاض. النص الادبي من أين وإلى أين. ص: 64.

[34]– المرجع نفسه. ص: 65.

[35]– عبد الملك مرتاض. القراءة وقراءة القراءة خوض في اشكالية المفهوم.(1995) مجلة (علامات)، (1995)، جدة ج15، م4، مارس، ص212.

[36]– عبد الملك مرتاض. في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد.(1998)، سلسة عالم المعرفة، الكويت، ص: 94.